البحث عن أسرار نمو اللغة العربية وتطورها عبر العصور

د. محمد سليم *
Email: saleem@ignou.ac.in

ملخص البحث:

تمتاز اللغة العربية عن اللغات الأخرى بفضل ثرائها المعجمي ونظامها اللغوي الفريد. تنمو اللغة العربية وتتطور، في العصر الجديد، بسبب نظامها اللغوي الطبيعي القوي وقدرتها على المسايرة مع الزمان. وثراء التراث اللغوي القديم يساعدها على ذلك. فمعظم الألفاظ والمصطلحات والتعبيرات العربية الجديدة التي دخلت فيها، يرجع أصلها إلى نظام الألفاظ والمترادفات الكثيرة التي عكفت العرب الأوائل على وضعها. فقد نمت اللغة العربية وتطورت عن طريق القياس والاشتقاق والنحت والتعريب، وظهرت بين أيدينا في ثوب جديد. فالنظام اللغوي العربي والمقاييس اللغوية التي وضعتها علماء اللغة تساعد اللغة العربية على أن تولد المعاني وتنتج الأفكار وترحّب بالألفاظ والمصطلحات والأساليب الجديدة في الحديث.

يكشف هذا المقالُ الغطاءَ ويزيل الستار عن النظام اللغوي العربي الذي يساعد على نمو اللغة العربية وازدهارها ومسايرتها مع العصر الجديد.

كلمات مفتاحية: النظام اللغوي، الاشتقاق، التعريب، تطور العربية، المترادفات.

Abstract:

Arabic Language is distinguished from other languages because of its rich lexicon and unique linguistic system. Arabic Language is continuously developing, thanks to its strong linguistic system and its ability to move with the pace of time. The richness of its ancient linguistic heritage is helping it do so. Most of the modern Arabic words and expressions of this language can originally be traced to the system of the words and synonyms that the early Arabs coined. The Arabic language grew and developed through analogy, derivation, formation of compound words and assimilation of foreign words. The Arabic linguistic system and linguistic standards developed by Arab linguists help the language

* أستاذ مساعد، جامعة إنديرا غاندي الوطنية المفتوحة، نيو دلهي، الهند.

generate meanings, produce new ideas and welcome new words, terms and styles in modern times.
This article reveals Arabic language system which helps the language grow, prosper and move with the pace of time.

كثرت التأليفات وتعدّدت، قديماً وحديثاً حول نشوء اللغة العربية عبر العصور. وناقش العلماء واللغويون العرب حول موضوع لغة الضاد أهي توقيف[1] أو اصطلاح[2]. وذهب ابن فارس[3] في الصاحبي[4] إلى الإثبات إلى أن لغة العرب هي توقيف واستدل بقول الله عزّوجلّ "وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماء كلَّها" فمعنى الأسماء هاهنا كل ما يتعارفها الناسُ من دابّة وأرض وسهل وجبل وأشباه ذلك[5]، وعلّم الله تبارك وتعالى بعد ذلك الأنبياء الآخرين الصالحين ماشاء أن يعلّم حتى انتهى الأمر إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، فعلَّمه من ذلك مالم يعلّم أحداً قبله "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" (الجمعة:2). وقد أوتي النبي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم والبيان الحق وأعلى درجة الفصاحة والبلاغة وسحر البيان والحكمة في الكلام، قال النبي صلى الله عليه وسلم "إنَّ مِنَ الكلام لحكمةً وإنَّ مِنَ البيانِ لسِحْراً"[6].

---

[1] قد ذكر السيوطي في كتابه الشهير "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" أنّ الله تبارك وتعالى علّم آدم الأسماء كلها ومنحه من اللغة والبيان ماشاء ثم وقف الله آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلّمه من ذلك ثم علّم بعد آدم الأنبياء الآخرين ماشاء أن يعلّم حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فأتاه من اللغة والبيان مالم يؤته أحداً قبله ثم قرّ الأمر قراره، فلا نعلم لغة من بعد حدثت: هكذا يثبت أن اللغة العربية وحي وتوفيق. للتفصيل راجع (السيوطي، ص: 9.

[2] معنى الاصطلاح هاهنا أن اللغة العربية قد وضعت لتسد حاجات الناس في العصور المختلفة. فهي لم تزل تنمو وتزدهر حسب حاجات المجتمع الإنساني وقد أوضح ابن جني في "الخصائص" أن أكثر أهل النظر يرون أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي ولا توقيف. (السيوطي ص:10)

[3] هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي. ولد بقزوين ونشأ بهمدان، وأتقن اللغة وأكثر من التأليف في فروعها المختلفة. كان جواداً كريما لم يردّ سائلاً حتى انّه كان يهب ثياب جسمه. توفي سنة 395هـ.

[4] كتاب شهير في فقه اللغة قدّمه ابن فارس إلى الصاحب بن عباد لذلك سمّاه الصاحبي نسبة إليه، ويعد هذا الكتاب مصدراً هاماً من المصادر اللغوية.

[5] ابن فارس، **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، بيروت: دار الكتب العلمية،ط1، 1997م.

[6] البخاري، باب ما يجوز من الشعر والرجز 1442/8.

وهناك عدد غير قليل من اللغويين الذين يؤكدون أنّ اللغة العربية، مثل اللغات العالمية الأخرى، ظاهرة اجتماعية، قد نمت وظهرت وتطورت لسد حاجات الناس في الاتصال بعضهم ببعض. فنمو اللغة العربية وتطورها بفضل تطور المجتمع العربي في عهود مختلفة. ومن مؤيدي هذه الفكرة اللغويون الكبار مثل سيبويه[7] وعبد القادر المغربي[8] ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم.

مهما كان من الأمر، فإن الحقيقة التي لا يمكن أن ينكرها أحد أن اللغة العربية قد امتازت عن سائر اللغات، بسبب قُوَّة بيانها وصفاء لهجتها وروعة إيقاعها وفوق كلِّ شيء بسبب كونها لغة القرآن "وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ،عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ" (الشعراء:195)، وقال الله تعالى "خَلَقَ الْإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" (الرحمن:4) وقال تعالى "هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ" (آل عمران:138) وقال "عَرَبِيّ مُبِين" (النحل: 103) وقال "كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا" (الرعد: 37) وقال "نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ (النمل: 89).

ومما لا شك فيه أن العرب قد امتازوا بالفصاحة والبلاغة والبيان الذي يسحر القلوب، وافتخروا بلغتهم الجميلة وكلامهم البليغ الخالي من اللحن والأخطاء وتركوا آثاراً خالدةً في صورة الشعر الرائع ما نسميّه الشعر الجاهلي، وبفضل جمال العربية وحسن ديباجتها وغزارة أدبها وقدرتها على التعبير عن المعاني الجليلة في ألفاظ قليلة وعبارات واضحة فصيحة خلّابة وأساليب بديعة متنوّعة ممتعة، اعتزّ العربي بنفسه اعتزازاً وسمّى الآخرين بالعجم.

هذا، ولما أُنزل القرآن على النبي الأمّي، أُعْجِبَ العرب به إعجاباً وفُتِنوا به افتتاناً، بما فيه من الإعجاز والبلاغة والسحر، وازدادت اللغة العربية أهميةً فأصبحت لغة الدين الإسلامي الحنيف والتراث العلمي والفكري الإسلامي، وأصبح القرآن هو المقياس

[7] عمر بن عثمان بن قنبر الحارثي، الملقب بـ سِيبَوَيه، إمام النحاة، أخذ النحو والأدب عن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ورد بغداد فذاع صيته فتعصبوا عليه. من أهم آثاره: كتاب سيبوية في النحو. توفي بشيراز سنة 180هـ.

[8] ولد عبد القادر المغربي في اللاذقية عام 1867م، وتلقى العلم في طرابلس الشام ولقي الإمام محمد عبده. شغل نفسه بتدريس اللغة والآداب العربية في كلية الحقوق بالجامعة السورية. ويعد كتابه كتاب الاشتقاق والتعريب من أهم كتبه، توفي سنة 1957م.

والميزان اللغوي والأدبي، وأقبل المسلمون عرباً وعجماً على الاغتراف من معينه العذب ومنهله الفياض ودخلت في اللغة العربية ألفاظ عربية كثيرة تدل على المعاني الدينية الخاصة. وقد ذكر السيوطي[9] في "المزهر في علوم اللغة" نقلا عن ابن فارس ألفاظاً كثيرةً منها: المؤمن والمسلم والكافر والمنافق والفاسق والفاجر والصلاة والصوم والزكاة والحج والعمرة[10] وغير ذلك مآت من الألفاظ. كما توجد في "فقه اللغة وسرّ العربية" للثعالبي ألفاظٌ كثيرةٌ دخلت في اللغة العربية بسبب الإسلام ومنها: الزكاة، والحج، والمسلم، والمؤمن، والكافر، والمنافق، والفاسق، والخبيث، والقرآن، والإقامة، والتيمم، والمُتعَة، والطلاق، والظهار، والإيلاء، والقبلة، والمِحراب، والمنارة، والطاغوت، وإبليس، والسَّلْسَبِيل، وهاروت وماروت، ويأجوج ومأجوج[11] وما إلى ذلك.

بالإضافة إلى كثير من الألفاظ التي دخلت في اللغة العربية بسبب الإسلام، قد ذكر الثعالبي في "فقه اللغة" كثيراً من الألفاظ التي عرّبتها العرب وهي أسماء تفرّد بها الفرس دون العرب، ومنها: الكوز، والجرَّة، والإبريق، والطشْت، والخِوان، والطبق، والقصعة، والدِّيباج، والبلُّور، والكعك، والياقوت، والفلفل، والزّنجبيل، والنرجس، والبنفسج، والمِسْك، والعنبر، والكافور، والصندل، والقرنفل، والغبارُ وغير ذلك مآت من الألفاظ التي دخلت في اللغة العربية وأصبحت جزءً لايتجزأ[12]. وكذلك أخذت العرب ألفاظاً كثيرةً من الرومية والسُّريانية والنبطية والحَبشِية والهندية[13] وعرّبتها تعريباً. فاللغة العربية لم تزل تنمو وتزدهر عن طريق التوالد وهو الاشتقاق والتجانس وهو التعريب كما ذكر عبد القادر المغربي في كتابه "الاشتقاق والتعريب"[14]، فاللغة العربية منذ أول يومها، قد فتحت أبوابها على مصراعيها لدخول الألفاظ والمصطلحات

---

[9] يعد جلال الدين السيوطي من كبار علماء الإسلام. ولد في القاهرة عام 849هـ، وقام برحلات علمية كثيرة ثم تجرّد للعبادة والتأليف، عندما بلغ سن الأربعين توفي في القاهرة 911هـ. ومن كتبه المعروفة "الإتقان في علوم القرآن" و"المزهر في علوم اللغة وأنواعها".

[10] السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، (بيروت: المكتبة العصرية)، ص: 259.

[11] الثعالبي، **فقه اللغة**، (الهند: اتحاد بكڈپو ديوبند)، ص: 329.

[12] المرجع نفسه، ص: 329-333.

[13] السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، (بيروت: المكتبة العصرية)، ص: 275-283.

[14] للتفصيل راجع المغربي، عبد القادر، **الاشتقاق والتعريب**، (مصر: مطبعة الهلال، 1908م)، ص: 9-30.

والأساليب الأجنبية. وهي كانت تملك من الكفاءة اللغوية القوية لتكون قادرةً على التعبير عن المعاني الجليلة، في كل عصر، حسب مقتضى الحال. وقد جاء التعريب ليقوم بدور بارز في إثراء اللغة العربية وجعلها قابلة للمسايرة مع الزمان.

ولكن بسبب شيوع الإسلام في أنحاء مختلفة من العالم وبفضل اختلاط العرب بالعجم دخلت في اللغة العربية الكلمات والألفاظ والمصطلحات الأجنبية عن طريق عشوائي وشاعت الأخطاء النحوية بين الناس، فخافوا على فساد اللغة العربية ووضعوا القوانين[15] لصيانة هذه اللغة الجميلة. وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته الشهيرة أن من أهم أسباب وضع النحو العربي هو الخوف على فساد اللغة العربية بفضل اختلاط العرب بالعجم[16].

والسبب الآخر وراء الخوف على فساد اللغة العربية هو السبب الداخلي وهو وجود الأخطاء الشائعة في كلام عامة العرب أنفسهم، خاصة الأخطاء في الإعراب. والإعراب هو البيان، يقال: أعربَ رجل يعرب إعراباً، فهو مُعرب، إذا بيّنَ وأوضحَ[17]، والإعراب هو الفارق بين المعاني في اللغة العربية، وقد أشار إلى ذلك ابن فارس في كتابه الشهير "الصاحبي في فقه اللغة العربية" "من العلوم الجليلة التي خصّت بها العرب الإعرابُ الذي هو الفارقُ بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرَفُ الخبرُ الذي هو أصْلُ الكلام، ولولاه ما ميّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجّب من استفهام ولا صَدْرٌ

---

[15] قد ذكر سلمة بن مسلم العَوتبي في كتابه الشهير "الإبانة في اللغة العربية" أنّه أول من وضع النحو أبو الأسود الدّؤلي ثم عرضه على على ابن أبي طالب فقال: ما أحسن هذا النّحو الذي أخذت فيه، فسمي نحواً بذلك. وقيل إنّه قد سمع أبو الأسود رَجُلاً يقرأ "إنّ اللّه بَرِي مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولَه" بخفض اللّام فتعجّب منه وأقبل على وضع القواعد النحوية، العوتبي سلمة بن مسلم، الإبانة في اللغة العربية، الجزء الأول، ط1، 1999م، ص:21.

[16] وما أحسن ما بيّن ابن خلدون في مقدمته حول هذا الموضوع وأنا أنقل "كانت العرب قد ملكت قدرة فائقة على التعبير فهم قد نشأوا وترعرعوا في بيئة عربية خالصة مما صقلت لسانهم وهذّبت لغاتهم وجعلتهم يعبرون عن خواطرهم في صورة صحيحة فصيحة. هذه في الجاهلية ولما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم الأخرى وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة فاختلطت اللغة بالكلمات الأجنبية والتبس الأمر عليهم وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة العربية الفائقة. وهذا الخوف من فساد اللغة هو الذي دفع إلى وضع القواعد اللغوية: "فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشياء بالأشياء مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو"، المقدمة، ص: 547.

[17] العَوتبي، سَلَمَة بن مُسْلم، **الإبانة في اللغة العربية**، (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1999م)، ص: 12.

من مصدر، ولا نعتٌ من تأكيد"[18]. هكذا فإن اللغة العربية في عهود ازدهارها قد واجهت تحديات من جوانب مختلفة. ومن أهمها الحفاظ على التراث اللغوي الأصيل مع المسايرة مع الزمان، والحقيقة أنها كانت تملك من القوة والروعة والجمال والكفاءة اللغوية الراسخة، فهي قد استطاعت أن تنهض بالأعباء الثقيلة وتهرول على طريق التقدم رغم الحقيقة أن بعض اللغات العالمية المعاصرة كانت تدبّ دبيبا رفيقا حتى كادت تموت بسبب عدم قدرتها على الإتيان بالألفاظ والمصطلحات المناسبة حسب حاجات العصور والأساليب الجديدة والبيان الحقيقي.

محاولة الحفاظ على أصالة اللغة العربية:

يرجع الفضل إلى أوائل العرب الذين أولوا عنايةً بالغةً بالنطق والبيان ولم يكن الغرض من ذلك إلّا الحفاظ على كلام العرب الذي افتخروا به دائماً، وخاصة البيان الذي أولوا اهتماماً بالغاً به. ولتحقيق هذا الغرض قد صنّفوا وألّفوا كتب اللغة والبلاغة والنقد والأدب ووضعوا القواعد النحوية والصرفية. ومن أحسن الكتب في هذا المجال هو أدب الكاتب لابن قتيبة[19] وكتاب ماتلحن فيه العامة للكسائي[20] وكتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي[21] وأسرار العربية لأبي سعيد الأنباري[22] والكتاب الآخر هو

[18] ابن فارس، **الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها**، ص:43.

[19] هو أبو محمد عبدالله ابن مسلم ابن قتيبة، وُلد بالكوفة، وولّي قضاء الدّينور ولذلك قيل له الدّينوري، أخذ عن أئمة اللغة والأدب له مؤلفات كثيرة ممتعة، وفضلا عن إنماء المكتبة العربية وإغنائها عن طريق التصانيف الأدبية واللغوية قد أدى دوراً بارزاً في الدفاع عن الكتاب والسنة. وينوه ابن خلدون بكتاب أدب الكاتب فيقول "سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين، للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي على القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتوابع لها وفروع عنها" راجع أدب الكاتب، المقدمة، ص: 8.

[20] هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبدالله بن بهمن بن فيروز الأسدي. جال في البوادي والقرى طلباً للعلم حتى نال منه حظاً وافراً ورجع إلى بغداد وكان ملازما للرشيد يصحبه في أسفاره ورحلاته إلى أن مات رحمه الله سنة 189هـ.

[21] هو الإمام عمر بن خلف بن مكي الصقلي النحوي. كان خطيبا وشاعرا وقاضيا ماهرا هاجر إلى تونس وأقام فيها مدة من الزمان توفي سنة 501هـ، والكتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان من أهم الكتب اللغوية يقوم موضوعه على تصحيح الأخطاء اللغوية الشائعة بين عامة الناس ويوجد فيها أيضا تصحيح الأخطاء التي تجري على ألسنة المتخصصين (راجع مقدمة الكتاب ص:6).

[22] هو عبد الرحمن بن محمد بن عبيدالله بن أبي سعيد الأنباري؛ لقبه كمال الدين، كنيته أبوالبركات. ولد في الأنبار سنة 513هـ، قدم إلى بغداد في صباه، قرأ اللغة على أئمة عصره وبرع في النحو حتى أصبح إماماً ثقة غزير العلم في

تقويم اللسان[23] لابن الجوزي وكتاب شرح الفصيح[24] لابن هشام اللخمي[25] وغير ذلك من كتب التراث اللغوي العربي. فحينما نقلّب أوراق هذه الكتب المهمة ونحاول أن نعرف عن أسباب تأليفها نجد أنّ أئمة اللغة والبيان حاولوا الحفاظ على أصالة اللغة العربية عن طريق وضع القوانين اللغوية والنحوية والصرفية.

هكذا اعتنى العرب كثيرا بصحة الكلام والفصاحة والبلاغة والبيان. والبيان عند العرب هو تبيان المعاني الظاهرة والخفية في الكلام حتى يصبح الأمر واضحاً جلياً على من أقبل على فهم حقيقة الأمر. والألفاظ تدلّ على كيفية ونوعية وطبيعية الأمور أكثر من أي شيء آخر. فلو قدر الإنسان على الإتيان بلفظ مناسب يدلّ على المعنى الذي يجيش في صدره واستخدم ذلك اللفظ في محله المناسب لوصل إلى غايته المنشودة وحقّق نجاحاً باهرًا في التعبير عمّا يدور في خاطره. فلو خاب في سعيه، بسبب عدم قدرته على اللغة أو استخدام ألفاظ وكلمات وتعبيرات لم يستخدمها العرب، من قبل، لأفسد المعاني المراد بها. وقد تنبّه أوائل العرب لذلك واعتنوا به كثيرا. فكل من تكلّف القول بما لم يذكر من قبل أصبح غرضا لسهام النقاد. وقد جاء عن أبي الأسود الدّؤلي أن امرءًا كلّمه ببعض ما أنكره أبو الأسود الدؤلي فسأله أبو الأسود عنه فقال: "هذه لغة لم تبلغك" فقال له: "يا ابن أخي لاخير لك فيما لم يبلغني"[26]، وأثبت له أنه كلامٌ مختلقٌ مرفوضٌ لا يوجد مثله في كلام العرب، وأئمة اللغة والبيان كانوا دائما على حيطة وحذر. فهم لم يتكلّفوا أن يأتوا بما لم يكن موجودا في كلام العرب من الألفاظ والتعبيرات أو كان موجودًا ولكن عجزوا عن الإتيان بمثله. وهذا هو الجاحظ أحد

اللغة والأدب. توفي سنة 577هـ ويعد كتابه أسرار العربية من أهم الكتب النحوية، وله كتاب شهير "مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين".

[23] هو محمد بن الجوزي، كنيته أبو الفرج ولقبه جمال الدين، نشأ وترعرع في مدينة بغداد وجلس للوعظ فيها حتى أصبح إمام بغداد، كان غزير الإنتاج، لطيف الصوت، حلو الشمائل توفي سنة 597هـ.

[24] يعدّ هذا الكتاب من أهم الدراسات اللغوية الصرفية الجليلة التي بذل جهدا كثيرا في وضعها اللغوي الفذّ ابن هشام اللخمي، لتكون "منهلا عذبا للباحثين عن السلامة اللغوية" وقد حاول المؤلف أن يضمّنه الفصيح والأفصح من كلام الناس. للتفصيل راجع مقدمة الكتاب .

[25] هو نحوي شهير، ولد في المغرب، نبغ في علوم اللغة خاصة علم النحو. كان لغويا وأديبا ومؤرّخا توفي سنة 570هـ.

[26] ابن فارس، **الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها**، ص: 14.

نوابغ العربية يبدأ كتابه الشهير "البيان والتبيين" فيقول "اللهم إنا نعوذ بك من العُجب بما نحسنُ، ونعوذ بك من السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العِي والحصر"[27]، هذا يدلّ على كثرة التزامه بلغة عربية صحيحة فصيحة.

فإن العناية بإصلاح اللسان وقوة النطق والبيان أدّت العرب الأوائل إلى أن يستنكروا اللحن في الكلام، قال يونس بن حبيب: ليس للاحِن مروءة ولا لتارك الإعراب بهاءٌ ويروى أن كاتبا لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر كتابا فلحن فيه: فكتب عمر إلى أبي موسى أن "اضرب الكاتب سوطا واعزله عن عملك"[28]. كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء فكان إذا دعاها قال: ياضمياء. فقال ابن المقفع: قل: يا ظمياء. فناداها: يا ضمياء. فلمّا غير عليه ابن المقفع مرّتين أو ثلاثا قال له: هي جاريتي أو جاريتك[29]. تكلّم ربيعة الرأي يوماً فأكثر. فكان العجب داخله. وأعرابي إلى جنبه فأقبل على الأعرابي فقال: ما تعدّون البلاغة يا أعرابي؟ قال: قلة الكلام وإيجاز الصواب. قال: فما تعدّون العي؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم! فكأنّما ألقمه حجرا[30].

يقول الجاحظ: البيان بصر والعي عُمي كما أنّ العلم بصر والجهل عمي. والبيان من نتاج العلم والعي من نتاج الجهل. وقال يونس بن حبيب: ليس لعي مروءة ولا لمنقوص البيان بهاء وقال: ابن التوأم: "الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم"[31]. قال كسرى أنو شروان لِبزُرجمهر، أي الأشياء خير للمرء العي؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن لم يكن له عقل؟ قال: فإخوانٌ يسترون عليه، قال: فإن لم يكن له إخوانٌ؟ قال: فمالٌ يتحبَّب به إلى الناس، قال: فإن لم يكن له مال؟ قال: فعيٌّ صامتٌ، قال: فإن لم يكن له؟ قال: فموتٌ مريح"[32]. و"قال خالد بن صفوان: ما الإنسانُ لولا اللسانُ إلا صورة ممثّلة أو بهيمة مُرسَلة، ثم أنشأ يقول: وما المرءُ إلا الأصغرانِ: لسانُه ومعقوله، والجسمُ

---

[27] الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج1 ،المطبعة الرحمانيه بمصر، 1932م، ص: 13.

[28] الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج2، المطبعة الرحمانيه بمصر، 1932م، ص: 216.

[29] المصدر نفسه، ص: 211.

[30] ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، (بيروت: دار الكتب العلمية،1983م)، ج4، ص: 56.

[31] الجاحظ، **البيان والتبيين** ، ص: 79.

[32] المصدر نفسه، ص: 162.

خلقٌ مصوَّرٌ"، و"قال سهل بن هارون: العقل رائد الرّوح، والعلم رائدُ العقل واللسانُ ترجمان العلم. وقال بعض الأدباء: كلامُ المرء وافد أدَبه"[33].

والسبب وراء أهمية النطق والبيان هو أنّ اللّه تبارك وتعالى قد خصّ اللسان العربي بالبيان. حتى قد أوضح ابن فارس بأن المتكلم يعرب عن نفسه في اللغات الأخرى أيضاً ولكن البيان الحقيقي لا يقع بغير اللسان العربي: "فإن قال قائلٌ: فقد يقع البيانُ بغير اللسان العربي، لأنَّ كلَّ مَنْ أفْهَم بكلامه على شرط لغته فقد بَيَّن. قيل له: إن كنتَ تريد أنّ المتكلّم بغير اللغة العربية قد يُعرِبُ عن نفسه حتى يفهم السامع مُرادَه فهذا أخس مراتب البيان، لأنَّ الأبكم قد يدلُّ بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمّى متكلّما، فضلاً عن أن يُسمَّى بيّناً أو بليغاً"[34]، فلو كان الأمر هكذا فلا بدّ للبيان الحقيقي من الثراء اللغوي الذي تمتاز به العربية عن كثير من اللغات الأخرى. فما هو الثراء اللغوي الذي تمتاز به العربية؟ سوف نحاول أن نكشف الغطاء عنها.

تطور العربية مع الحفاظ عليها:

فإن نظرة فاحصة في أعمال اللغويين الكبار تكشف لنا الحقيقة أنهم قد أرسوا بنيان النظام اللغوي القوي وتركوا مجالا فسيحا لتطور العربية ومسايرتها مع الزمان عن طريق الاشتقاق والإبدال والإدغام والقلب والنحت والتعريب، واهتموا بالثراء اللغوي الموفور حتى وضعوا مآت من الألفاظ للتعبير عن المعنى الواحد في الأحوال المختلفة والأوضاع المتباينة. فقد خيل لهم أن يجعلوا هذه اللغة الكريمة قابلة للمسايرة مع العصور الجديدة القادمة. خذ على سبيل المثال كثرة المترادفات التي لا يوجد لها نظير في بعض اللغات العالمية المهمة، وهي التي تساعد الأدباء والشعراء في الإتيان بالألفاظ المناسبة للتعبير عن المعاني الجليلة الجميلة وتنويع تعبيرهم عن الشيء ذاته. وتمنح كثرة المفردات اللغة العربية من الثراء اللغوي ما يعجز عنه البيان. وهي التي تساعد العربية على البيان الحقيقي. "وإن أردت أنّ سائر اللغات تبيّنُ إبانة اللغة العربية فهذا غَلط، لأنّا لو احتجنا أن نعبّر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلّا باسم واحد، ونحن

[33] العَوتَبي، سَلَمَة بن مسلم، **الإبانة في اللغة العربية**، ج 1، ص: 8-9.

[34] ابن فارس، **الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها**، ص: 19.

نذكر للسيف بالعربية صفاتٍ كثيرةً، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسمّاة بالأسماء المترادفة. فأين هذا من ذاك، وأين لسائر اللغات من السَّعَة ما للغة العرب؟"[35]. وهناك أمثلةٌ كثيرة تدُلُّ على أن اللغة العربية تبين أكثر من أي لغة أخرى. وفقه اللغة وسرّ العربية للثعالبي مليء بالألفاظ والمترادفات المناسبة التي استخدمها العرب للتعبير عن أنفسهم. وهذا يدُلُّ على أن لكل موضع مقالاً ولكل شيء ألفاظاً يختصّ بها "لا يقال كأس إلّا إذا كان فيها شراب. وإلّا فهي زجاجة. ولا يقال مائدة إلّا إذا كان عليها طعام وإلّا فهي خوان، ولا يقال: كوز إلّا إذا كانت له عروة وإلّا فهو كوب. لا يقال قلمٌ إلا إذا كان مَبرياً وإلّا فهو أنبوبة، ولا يقال خاتم إلا إذا كان فيه فصٌّ وإلا فهو فتحة. لايقال فَروٌ إلا إذا كان عليه صُوفٌ وإلّا فهو جلدٌ ولا يقال: رَيطة إلّا إذا لم يكن لِفْقَين، وإلّا فهو مُلَاءَةٌ....[36].

هكذا كثرة الألفاظ والمترادفات والحروف المفردة الدالّة على المعنى جعلت اللغة العربية غنية وقابلة للإتيان بالمعاني المختلفة حسب مقتضى الحال وحاجات الناس في كل عصر. فما زالت اللغة العربية قادرة على أن تساير مع الزمان، فكم من الألفاظ الجديدة التي نستخدمها الآن يرجع أصلها أو نماذجها ونظام تراكيبها وإعرابها إلى نماذج الألفاظ والكلمات والتعبيرات التي اهتم أئمة اللغة العرب الأوائل بصياغتها. وقد وضع أبو علي الفارسي[37] وتلميذه عثمان بن جني[38] القوانين اللغوية المهمة من أهمها القياس أو المنهج القياسي الذي أدى دورا بارزا في تشكيل اللغة العربية وتحريرها من ربقة التقليد.

والفضل يرجع إلى عبدالقادر المغربي إلى الإثبات بدلائل واضحة وبراهين قاطعة أنّ اللغة العربية قد نمت وازدهرت وسايرت مع الزمان عن طريق الاشتقاق والتعريب مثل ما نمت الأمم المختلفة وازدهرت عن طريق التوالد والتجانس. "وإنّ اشتقاق كلمة من أخرى مما يقصد إليه العرب. وله عندهم قياس يعرفونه وأسلوب يجرون عليه ولا يجوز لمن جاء

---

[35] المصدر نفسه، ص: 19.

[36] الثعالبي، **فقه اللغة**، ص: 57.

[37] قد سبقت ترجمته.

[38] هو أبو الفتح عثمان ابن جني، من أعلام النحاة ولد بالموصل عام 322هـ. وتعلم النحو على يد الأخفش النحوي. ومن أشهر كتبه كتاب الخصائص.

بعدهم أن يفتات عليهم في اشتقاق مالم يشتقوه هم. فلا نشتق من النحافة "ناحف" كضامر وقد قالوا هم "نحيف". ولا من الكشح "كشيح" بمعني مضمر العداوة وقد قالوا هم كاشح. ولا من السخط سَخّطه بتشديد الخاء كهيَّجَه إذا أغضبه وقد قالوا هم أَسخطه بالهمزة. واشتقوا من الحب "محبوب" ولم يشتقوا "حابّ" فلا نستعمله ومن أحبّ "مُحِبٌ" بصيغة اسم المفعول"[39]. فلا يجوز لأحد يحاول أن يشتق كلمة أن ينحرف عن القياس اللغوي المعروف عند العرب. فعلى سبيل المثال كلمة المجتمع معناه مكان الاجتماع من جمع، وقد جاءت منه ألفاظ كثيرة عن طريق الاشتقاق. فالجامع، الجامعة، الجماعة، الجمعية، المجمّع، المجتمع، الاجتماع، المجموعة، الجمعة. جميع هذه الكلمات قد وضعت على طريق قياس شائع عند العرب. وكذلك نجد أن الكلمات المشتقة من أصل واحد وهو "ج. م. ع" تودّي المعاني المختلفة حسب حاجات. وقد أدى الاشتقاق من جذور عربية دورا مهما في منح اللغة العربية قابليتها للنمو والمسايرة مع الزمان كما كتب ستتكيفيتش في كتابه العربية الفصحى الحديثة: "إن التحدي الشامل كان ينبغي أن يقابل باستجابة شاملة، وكانت العربية لحسن الحظ -نظريا على الأقل- بثرائها المعجمي، وبمرونتها الصرفية الواضحة من حيث الاشتقاق مهيئة لمجابهة هذا التحدي"[40]. فعلى سبيل المثال: إن معظم الألفاظ الجديدة مثل مصنع، مطار، جامعة، دبّابة، برادة، ثلّاجة، محرّك، مولّد، شيوعية وغير ذلك لم تكن موجودة في المعاجم العربية وهي ألفاظ جديدة وضعت لغرض أداء المعاني المطلوبة حسب حاجات عصرنا الجديد. والسبب وراء ذلك أنّ "العربية أوسع اللغات مدىً، وأغزرهن مادة، وأوفاهن بالحاجة الحقيقية من معنى اللغة لكثرة أبنيتها، وتعدد صيغها، ومرونتها على الاشتقاق وانفساحها من ذلك إلى ما يستغرق اللغات بجملتها"[41]. وهناك ألفاظ أخرى كثيرة ترجع إلى جذور عربية قديمة. فقد دخلت في اللغة العربية عن طريق القياس لتوليد المعاني الجديدة حسب مقتضيات العصر الجديد.

---

[39] المغربي، عبد القادر، **الاشتقاق والتعريب**، (مصر: مطبعة الهلال، 1908م) ص: 10-11.

[40] ستتكيفتش، **العربية الفصحي الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب**، ترجمة وتعليق: دكتور محمد حسن عبد العزيز، (القاهرة: دارالسلام للطباعة، 2013م)، ص: 36.

[41] الرافعي، مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب**، (القاهرة: مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، 2012م)، ص: 153.

خاتمة البحث:

من المعلوم أننا نعيش في عصر العلوم والتكنولوجيا. وكل يوم يبشّر باختراعات جديدة منفردة، ونحن الآن في أمس حاجة إلى المواكبة مع العصر الجديد عن طريق الوقوف على ألفاظ ومصطلحات وتعبيرات جديدة بديلة للغات الأجنبية. ولا حرج في أخذ الكلمات من اللغات العالمية المعروفة للتعبير عن المعنى حسب حاجات العصر. فكم من اللغات العالمية المهمة قد ماتت واندرست لأنها قد أغلقت أبوابها ولم تقبل أي شيء جديد في صورة الألفاظ والكلمات والأساليب الجديدة المتنوعة التي تثري اللغات وتجعلها قابلة للنمو والتطور مع تطور المجتمع البشري. وفي الواقع، قد استطاعت العربية بفضل جمالها وقوتها وسحرها وثرائها المعجمي أن تولد المعاني الجديدة مع الحفاظ على التراث اللغوي العريق القوي وهذا خير دليل على أسرار نظامها اللغوي القوي ومرونتها الصرفية الفريدة ومبادئها النحوية الراسخة.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- البخاري الشريف، الجزء الثامن.
- ابن الجوزي، تقويم اللسان، دارالمعارف، ط1، 1966م.
- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بيروت: دار ابن حزم، 2011م.
- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م.
- ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، أدب الكاتب، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.
- ابن مكي، أبو حفص عمر بن خلف، تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1990م.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، فقه اللغة وسرّ العربية، ديوبند -الهند اتحاد بكڈپو.

- الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأول والثاني، مصر: المطبعة الرحمانية، 1932م.
- الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، القاهرة: مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، 2012م.
- ستتكيفتش، العربية الفصحى الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب، ترجمة وتعليق: دكتور محمد حسن عبد العزيز، القاهرة: دار السلام للطباعة، 2013م.
- السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، بيروت: المكتبة العصرية.
- العَوتبي، سَلَمَة بن مُسْلم، الإبانة في اللغة العربية، ج1، عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ط1، 1999م.
- الكسائي، أبو الحسن علي بن حمزة، ماتلحن فيه العامة، القاهرة: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، ط1، 1982م.
- المغربي، عبد القادر، الاشتقاق والتعريب، مصر: مطبعة الهلال، 1908م.